



الفصل الثاني

المظاهر السلبية للحضارة الغربية

بمرور الزمن عرّفت أفكار وآراء المفكرين والفلاسفة طريقها إلى الواقع العملي في الدول الغربية ، وذلك بعد اقتناع رجال السياسة بهذه الآراء والفلسفات . الأمر الذى أدى إلى سيادة العديد من المظاهر السلبية في تلك الدول . هذه المظاهر لم يقتصر أثرها على الحياة داخل الدول الغربية ذاتها ، بل تعداه إلى علاقة الدول الغربية ببقية دول العالم .

ولا يتسع المقام هنا لبيان جميع تلك المظاهر السلبية ، بل سيقصر الأمر على بيان أهمها وهى : العنصرية ، والعلمانية ، والبروتستانتية ، والصهيونية ، والنازية . وفيما يلى بيان وتفصيل لتلك المظاهر .



تطورت العنصرية الغربية مما يعرف بعنصرية التفاوت في عصر التحديث - إلى ما يعرف بعنصرية التسوية في عصر ما بعد الحداثة. ويرجع هذا التطور إلى أن العقل والعلم المنفصلين عن القيم الأخلاقية - قادران على رصد أمرين متناقضين:

* الأول: الاختلافات المادية بين البشر تلك التي تميز الجماعات البشرية بعضها عن بعض، وتؤكد الخصوصية العرقية والاثنية أو الجينية (الوراثية) أو اللونية لكل جماعه منها.

* الثاني: القانون الطبيعي المادى العام الذى يسرى على البشر فى كل زمان ومكان، وهو قانون لا يعترف بالخصوصية ولا يكثرث بما يميز حضارة عن أخرى وإنساناً عن آخر.

ونتج عن هذين الأمرين المتناقضين عنصرية التفاوت ، وعنصرية التسوية:

1) عنصرية التفاوت : طبقاً للرؤية الأولى فإن البشر أعراق وأجناس مختلفة ليس بينهم رابط. فهم مختلفون بشكل بيولوجى ، وإن بعضهم قوى متفوق والبعض الآخر ضعيف متخلف، وبناء على ذلك يصبح من حق القوى المتفوق أن يبيد أو يوظف الضعيف المتخلف لمصلحته.

وهناك ارتباط وثيق بين عنصرية التفاوت وبين الاستعمار الغربى لشعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية بما فى ذلك إبادة الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية وأستراليا.

لقد وضع الجنس الأبيض نفسه فى مركز الكون، ووضع بقية البشر مع الطبيعة (المادة) فى الهامش ، وبدلاً من أن يكون الهدف من الوجود فى الكون هو تحقيق مصلحة الإنسان بوجه عام ، أصبح الهدف هو تحقيق مصلحة الإنسان الأبيض ، وبدلاً من

الإيمان بأسبقية الإنسان على الطبيعة أصبح الإيمان بأسبقية الإنسان الأبيض على الطبيعة وعلى بقية البشر. لذلك كان الغزو الاستعماري هو وسيلة السيطرة والاستغلال للطبيعة المادية وللحداثة البشرية الموجودة عليها، أي بقية شعوب العالم.

وقد وضع الإنسان الغربي النظرية العرقية ليدعم بها دعواه بأنه هو مركز الكون دون ماعداه. والنظرية العرقية محاولة لتحديد من هو الإنسان حسب مقاييس مادية ملموسة بحتة. لذلك فإن "الأمة" هي مجموعة من البشر تتصف ببعض الصفات العرقية المادية الكامنة فيها، إلى الحد الذي جعل البعض يتخيل أن ثمة عصابات وغدداً داخل كل شعب هي المسؤولة عن عبقريته، لذا لا يمكن لشعب آخر أن يحاكيها.

جاء في دائرة المعارف البريطانية أن عبارة "مجموعة عرقية" تعني جماعة من البشر لها صفات بيولوجية محددة، أو صفات ثقافية وقومية محددة أو مجموعة من كل هذه الأشياء. ومن ثم فإن التفوق العرقي لا يعبر عن نفسه في خصائص بيولوجية وحسب، وإنما في أشكال اثنية وحضارية مختلفة، لذلك تم افتراض أن بعض الأجناس في تفوق وتطور دائم (الجنس الأبيض) وبعض الأجناس في تخلف دائم (بقية شعوب الأرض).

ومن عنصرية التفاوت تولدت نظريات سياسية عديدة تتفاوت في درجة عنصريتها، فمنها من يرى الشعوب الأخرى المتخلفة (غير الغربية) على أنهم أقرب إلى الحيوان منهم إلى البشر، وبالتالي يجب إبادةهم، ومنها ما اتخذ موقفاً أقل تشدداً ونظراً للشعوب المتخلفة بأنهم يحتاجون إلى الرعاية، وبالتالي لابد من وضعهم تحت الوصاية.

إن عنصرية التفاوت كانت تستند إلى ادعاءات دينية، أو فكرية يطلقها الإنسان على نفسه، ولكن بعد الثورة الصناعية الأولى بدأت أوروبا ترى أن تفوقها يستند إلى حقائق مادية من إنتاج الصناعة مثل: الآلات والمعدات والمدافع وغير ذلك.

وقد اعترف المفكر النازي "الفريد روزنبرج" أثناء محاكمته، أن العنصرية جزء أصيل من الحضارة الغربية المعاصرة، وأن هناك علاقة عضوية بين العنصرية والاستعمار، وأشار إلى أنه قرأ لفظ "سوبر مان" في كتاب عن حياة اللورد كيتشنر، كما أنه قرأ عبارة "العنصر السيد" في مؤلفات عالم الأجناس الأمريكي "ماديسون

جرانت " والعلامة الفرنسي "جورج دي لا بوج" الذى دعا إلى أخلاقيات جديدة مبنية على الانتخاب الطبيعى، وعلى الصراع الدائم والبقاء للأصلح بدلا من الأخلاق المسيحية. وقد أوضح لا بوج تصوره لتفوق الجنس الآرى باعتباره الجنس الأرقى الأقدر على الصراع والبقاء وذبح الآخرين . ولم يكن لا بوج وحده الذى يروج لهذه الأفكار، بل كان يشاركه العديد من مفكرى الغرب مثل أوتو . و أم . ون وارند . ست هايكل وأوتو فينينجر فى ألمانيا، وهوستون تشامبرلين الإنجليزى الأصل، وجيمس هنت مؤسس جمعية لندن الأنثروبولوجية . الذى أعلن أن الطريقة الوحيدة لجعل علم الأنثروبولوجيا أكثر حيادية هو تحريره من القيم الأخلاقية والإنسانية. ومن أهم المفكرين روبرت نوكس الذى أثرت أفكاره فى داروين صاحب نظرية التطور التى كان من السهل على دعاة العنصرية أن يتبنوا منظورها للأخلاقى، وأن ينقلوا مفاهيمها من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان كما فعل "نيتشه"، ومنذ ذلك الحين والإنسان الغربى يتحرك فى إطار شعارات عرقية حضارية صريحة مثل "عبء الرجل الأبيض فى إنجلترا"، والمهمة الحضارية" فى فرنسا، والقدر المحتوم فى الولايات المتحدة..... وغير ذلك.

(2) **عنصرية التسوية:** تنطلق عنصرية التسوية من القول بأن هناك قانوناً مادياً واحداً يسرى على جميع المخلوقات - بصرف النظر عن كون هذه المخلوقات بشراً أو حيواناً أو أى كائن آخر - ومن ثم يصبح البشر مادة طبيعية عامة لا تتميز بأى خصائص إنسانية تفصلها عن الكائنات الأخرى، وبذلك يصبح البشر وحدات مادية إنتاجية استهلاكية خاضعة لقانون مادية عام . ويتسع نطاق التسوية إذاً ليسرى القانون المادى العام على الإنسان والحيوان والكائنات الأخرى، ويتم التسوية بينها. فعنصرية التسوية لا تساوى بين البشر بل تسويهم الواحد بالآخر بحيث لا يوجد فارق بين شعب أو آخر، ولا يوجد خصوصيات ولا اثنيات ولا تنوعات هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا فرق بين البشر وأى مخلوق آخر.

إن عنصرية التسوية لا تهاجم التفاوت بين الإنسان وأخيه الإنسان وحسب، إنما تهاجم التفاوت بين الإنسان وأخيه "الحيوان والنبات، والمطلوب من الإنسان أن يصبح إنساناً طبيعياً عاماً ليس له حدود إنسانية خاصة، إنساناً مرناً قادراً على تغيير

قيمه بعد إشعار قصير، ويتقبل ما يمليه عليه قطاع اللذة من أحلام وأوهام . ويتميز هذا الإنسان بأن دوافعه واحتياجاته واستجاباته طبيعية مادية ، هذه الدوافع والاستجابات الطبيعية تبعده عن عالم الإنسان وتدخله في عالم الأشياء الطبيعية ، وتجعل منه إنسانا ذا بعد واحد مادي لا يمكن تجاوزه. ولذلك هناك إصرار في الغرب على الدفاع عن حقوق الشعوب المضطهدة (ماعد الشعب الفلسطيني) وحقوق الشواذ والتمركز حول الأنثى وزواج المثليين (الرجل يتزوج رجلاً مثله، والمرأة تتزوج امرأة مثله) ، فالدفاع هنا ليس عن الإنسان، وإنما في واقع الأمر هجوم على أى قيم إنسانية مشتركة.

ويمكن توضيح ذلك من خلال ما حدث من أحد الأطباء النفسيين، إذ اقترح على الجمعية الأمريكية للطب النفسى أن تشطب الشذوذ الجنسى من قائمة الأمراض النفسية ، باعتبار أن الشذوذ الجنسى له أصول بيولوجية ، وبالتالي فإن الشاذ ليس مسؤولاً عن شذوذه، أى أن هذا أمر طبيعى لادخل للإنسان فيه ، وقد وافقت الجمعية النفسية الأمريكية بكل ترحاب على هذا الاقتراح . وبعد عشرين عاماً ، عاد هذا الطبيب نفسه، وتراجع عن هذا الاقتراح ، ورأى أن الشذوذ الجنسى مرض يمكن العلاج منه. وقد قوبل هذا الرأى الآخر بالاستهجان، وقامت الدنيا ولم تقعد لأن هذا الرأى يفترض أن الشذوذ الجنسى يشكل انحرافاً عن القيم الإنسانية.

وإذا كانت ألمانيا النازية هى الدولة التى وصلت فيها عنصرية التف.اوت قمتها، فإن الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة التى تصل فيها عنصرية التسوية إلى قمتها. فالمجتمع الأمريكى مجتمع بلا تقاليد حضارية أو دينية سابقة، بل حضارة مهاجرين قادرين على التكيف السريع، والنشاط الأساسى للإنسان فى المجتمع الأمريكى هو الإنتاج والاستهلاك أو البيع والشراء ، والبحث عن اللذة وتعظيمها ، لذلك فهى حضارة يمكن أن يظهر فيها الإنسان الطبيعى ذو البعد الواحد.

وعنصرية التسوية تتسق تماماً مع الاستهلاكية العالمية (النظام العالمى الجديد) تماماً كما كانت عنصرية التفاوت تتسق تماماً مع الاستعمار (النظام

العالمى القديم) ، وعلى الرغم من أن كلتا العنصريتين تدوران في إطار مرجعية مادية للعالم ، إلا أن الاستعمار كان يستخدم فكرة التفاوت بين الأجناس لتبرير عملية تحويل شعوب آسيا وإفريقيا إلى مادة دنيا وعمالة رخيصة، ومصدر للمواد الخام، وأسواق يحتكرها البلد المستعمر يحل بها مشاكله، ويرفع بها مستواه الحضارى. أما الاستهلاكية العالمية فإنها تستخدم فكرة المساواة أو التسوية الطبيعية الكاملة بين البشر والكائنات الطبيعية لتحويل البشر جميعا (فـ مـ اـ لـ شرق والغـ رب) إلى مادة استهلاكية إنتاجية، وتحويل العالم كله إلى سوق واحد.

وتظهر عنصرية التسوية المعادية للإنسان ، والتي تقوم بتسويته بالكائنات الأخرى في أفكار ريتشارد دوكنز أستاذ علم الأحياء في جامعة أكسفورد الذى يبدأ منظومته بالقول بأن الإيوان بوجود إله متجاوز للنظام الطبيعى - إن هو إلا خلل فى العقل يشبه الفيروس الذى يصيب جهاز الكمبيوتر . وقد بدأ هذا الأستاذ حركة سياسية لمنح القروء حقوقا متساوية مع البشر ، على أساس نظرية داروين التى تذهب إلى أن الإنسان والقردة متساويان من الناحية الجوهرية، وإلى أننا نحن أنفسنا قروء. وظهر ما يسمى " مشروع القرد الأعظم " الذى أصدر "إعلان القردة العليا" على غرار " إعلان حقوق الإنسان " ، ويبدأ الإعلان بما يلي: "نحن نطالب بتأسيس جماعة من القردة العليا من الأعضاء المتساوين فى الحقوق تضم ما يلي :

"البشر - الشمبانزى - الغوريلا - الأورانج - أوتانج" . وقد عرّفت عالمة الأثنرو يولوجيا الهولندية بربارة نوسكى هدف هذا الإعلان بأنه " فك التمرکز حول الإنسان " .



يحاول الغرب فرض مصطلح العلمانية على جميع شعوب العالم، وخاصة العالم الإسلامى. هذا المصطلح يروج له الغرب بكل الوسائل المتاحة، ويربط بينه وبين التقدم العلمى الذى حققه الغرب. وإذا كانت الشعوب الأخرى تريد التقدم فعليها اتباع هذا المصطلح وهو العلمانية.

وقد تطور مفهوم العلمانية فى الغرب من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة. والعلمانية الجزئية تعنى فصل الدين عن الدولة، أى فصل المؤسسات الدينية عن المؤسسات السياسية. أما العلمانية الشاملة فتعنى سيادة المبدأ المادى الواحد، الذى ينطبق على الإنسان وعلى الطبيعة، ومن ثم فلا فرق بين الإنسان والطبيعة، بل هما شىء واحد لا فرق بينهما، ومن ثم يمكن إخضاعهما معاً للمقاييس الكمية الرياضية، دون الرجوع إلى أى قيم مطلقة معرفية كانت أم أخلاقية. ومن ثم تسوية الإنسان بالكائنات الأخرى والطبيعة من حوله ليصبح الإنسان "إنساناً طبيعياً مادياً". إذاً بعد واحد "مادى" فقط مثله مثل الطبيعة تماماً. وبما أن الطبيعة من وجهة نظرهم هى نظام يتحرك بلا هدف أو غاية، نظام واحد مغلق مكتف بذاته، توجد مقومات حياته وحركته بداخله، أى أن مركزه وقوة دفعه كامن حال فيه، وهو نظام ضرورى كلى شامل لا يمكن لأى من المخلوقات تجاوزه. وهذا يعنى أن الطبيعة لا حاجة لها. فى خالق يدبر أمرها. فالإنسان الطبيعى المادى بلا حدود ولا تتحكم فيه القيم والأعراف، هو جزء لا يتجزأ من الطبيعة خاضع تماماً لقوانين الطبيعة تحركه أينما شاءت لا يمكنه الهرب منها.

لقد عبر هتلر عن "الإنسان المادى الطبيعى" حينما قال: يجب أن نكون مثل الطبيعة، والطبيعة لا تعرف الرحمة أو الشفقة".

أما عقل الإنسان فليس له أى فعالية ، فوجوده ليس ضروريا لحركة الكون ، بل إن العقل والخيال يشكلان عوائق تقف في طريق محاولة الإنسان الإذعان للطبيعة، والتحرك معها والخضوع لها.

يمكن تفسير قيم الإنسان الطبيعي المادى ودوافعه ونشاطاته على أسس مادية ، إن ما يحرك الإنسان هو أخلاقيات طبيعية مادية تستند إلى المنفعة والمصلحة والرغبة في البقاء. وإذا كانت الطبيعة في حالة حركة دائمة ومتغيرة باستمرار، لذلك فإن الطبيعة البشرية دائمة التغير أيضا ، ومن ثم فلا توجد أى معايير دينية أو أخلاقية ، أو حتى إنسانية ، فمثل هذه المعايير خاضعة لقوانين الحركة أى التغير المستمر. إن الإنسان المادى تحركه دوافعه المادية سواء كانت اقتصادية أو جسمية (جنسية) ، فهو من ناحية إنسان اقتصادى، ومن ناحية أخرى إنسان جسمى أو جنسى:

* فالإنسان الاقتصادى تحركه الدوافع الاقتصادية والرغبة في تحقيق الربح والثروة، وهو ما يعبر عنه بمبدأ المنفعة، حيث لا يعرف الإنسان سوى مصلحته الاقتصادية، ويحيد نشاطاً واحداً هو البيع والشراء ، ومن ثم فإن الإنسان ينتمى إلى عالم الاقتصاد العام ولا يعرف الأهداف السامية التى تتجاوز الحركة الاقتصادية.

* أما الإنسان الجسمى (الجنسى) فإن ما يحركه دوافعه الجنسية وغدده وجهازه العصبى، وهو في حركته يبحث عن اللذة ولا يعرف سوى المتعة.

إن الإنسان الطبيعي المادى هو نفسه الإنسان الاقتصادى ، وهو نفسه الإنسان الجسمى ، وقد تختلف المضامين ولكن البنية واحدة . لو وضعنا كلمة "اقت. صاد" أو كلمة "جنس" بدلاً من كلمة "طبيعة" لظل كل شىء على ما هو عليه ولما غيرنا شيئاً.

لقد بدأ بعض العلماء في الغرب في توجيه النقد إلى العلمانية وآثارها السيئة على الإنسان والبيئة . ومن هؤلاء العلماء البروفسور "كافين رايل-ى" ، الذى تناول في كتابه "الغرب والعالم" بعض قضايا الحداثة الغربية مثل: علاقة العلم بالأخلاق ، وانفصال العلم عن القيم الأخلاقية والإنسانية ، وظهور الشمولية والنزعة الاستهلاكية، أو ما يسميه "أخلاق الصيرورة" ويتناول "كافين رايلى" في كتابه اعتماد التقدم العلمى والتكنولوجى في الغرب في بداية القرن التاسع عشر على مصادر

الطاقة غير المتجددة "الوقود الحفري". فقد اعتمدت الصناعات التي أقيمت في فترة الثورة العلمية الأولى على الفحم أولاً ثم البترول بعد ذلك.

ومن المعروف علمياً أن الفحم والبترول والغاز الطبيعي عبارة عن ثروات كونتها الطبيعة عبر ملايين السنين، وأن ما يستخرج منها لا يمكن تعويضه مرة أخرى. ويقول المؤلف: "هانحن نبددها خلال قرن أو قرنين، ثم يتابع قوله: "لقد سلكنا الطريق السهل، فأسرنا في تبديد هذه الكنوز وكأن الغد لن يأتي، لقد اتجهت التكنولوجيا الغربية نحو التعدين بدلاً من استغلال مصادر الطاقة المتاحة (الهواء والماء...) لأن فكرة تسخير الطبيعة أصبحت متأصلة في الحضارة الغربية، كما أن التعدين هو "صناعة اللصوص"، فالتعدين يسرق من الأرض طاقتها المتراكمة، وهو يسلب أجيال المستقبل ما تم ادخاره من ملايين السنين".

ثم يبين المؤلف، أن الإسراف في استخدام مصادر الطاقة غير المتجددة "الفحم والبترول" أدى إلى تلوث خطير في البيئة الطبيعية وامتد التلوث إلى الماء والهواء والتربة. بالإضافة إلى أن الإسراف في استخدام هذه المصادر من الطاقة أدى إلى تبديدها وربما نفاذها في فترة قصيرة جداً.

ويرى المؤلف أن السبب في تبديد الموارد، وزيادة حدة التلوث البيئي لا يرجع إلى زيادة السكان، إنما يرجع إلى الأنماط الاستهلاكية التي تشجعها الرأسمالية. فالرأسمالية لا تأخذ في حساباتها عند إنتاج السلع والخدمات التكلفة الاجتماعية والبيئية، ويتم حساب الأرباح منفصلة عن مثل هذه التكاليف، على سبيل المثال فإن توليد الطاقة من المفاعلات النووية يتم دون التفكير في كيفية التخلص من النفايات النووية التي لا يعرف أحد مدى تكلفتها ومدى خطورتها على الجنس البشري، حتى أن شركات التأمين الأمريكية ترفض التأمين على محطات توليد الكهرباء النووية. إن المؤلف يبين أن منطق العلم الغربي في ذاته منفصل عن الإطار الأخلاقي والإنساني، وهذه هي نقطة قصوره. فالعلم الغربي قائم على انفصال الإنسان عن الطبيعة، ثم سيطرته عليها وتسخيرها لصالحه. ومن ثم فإن هذا الانفصال يؤدي إلى تبديدها وتدميرها. لقد نزع الإنسان الغربي القداسة عن كل شيء حتى عن الإنسان ذاته، وجعل من المنفعة والمتعة واللذة المقاييس الوحيدة والنهائية لحياته ووجوده، ومن هنا لا يملك إلا استهلاك ما حوله واستهلاك

نفسه . ويقول المؤلف : إنه سأل العالم الأمريكى الألمانى الأصل "فرانز أوبنهايمر" الذى ساهم فى اختراع القنبلة الذرية ، عن أى شىء فعله بعد أن حقق اكتشافه ، كانت إجابته قصيرة ومؤثرة "لقد تقيأت" . إن أوبنهايمر العالم المحايد المنفصل عن القيم اكتشف القنبلة الذرية ، أما أوبنهايمر الإنسان فكان تقيأ وقضى بقية حياته يحارب ضد القنبلة الذرية ولكن دون جدوى!!

وهذا يبين أن العنصر الربانى فى الإنسان لا يمكن تصفيته، فهو عنصر لصيق بإنسانية الإنسان وفطرته ، ويؤكد ذلك أن الشعوب الغربية إذا ارتكب أحد من أعضاء النخبة الحاكمة فعلا إباحيا أو غير أخلاقى فى حياتهم الخاصة، فإن الناس تحتج على ذلك، وتطالب باستقالته من منصبه ومحاكمته على مثل هذه الأفعال. فى حين أن عامة الناس يفعلون مثل هذه الأفعال الإباحية علنا دون أن يحاكمهم أحد، ودون أن ينكر عليهم ذلك أو يطالب بمعاقبتهم ، لأن مثل هذه الأفعال عادية جداً فى المجتمعات الغربية العلمانية . فكأن الجماهير تود أن تحتفظ بالنخبة الحاكمة ورموزها فى إطار المقدس، ولا تود أن تنزع عنها القداسة. لذلك تم إجبار الرئيس الأمريكى نيكسون على الاستقالة عقب فضيحة "ووترجيت" تلك التى تجسس فيها على منافسه ، وتمت محاكمة الرئيس الأمريكى كليتون لتحرشه الجنسى بالمتدربة فى البيت الأبيض. كما أن بعض الإنجليز طالب بإلغاء الملكية فى بريطانيا لأن بعض أعضاء الأسرة المالكة أتى ببعض الأفعال الإباحية. إن التجسس و التحرش الجنسى وكل الأفعال الإباحية يرتكبها عامة الناس فى الغرب، ولكن ينكرون ذلك على الحكام.

إن العلم إذا انفصل عن الدين والقيم أصبح مثل الشيطان الرجيم يدعى لنفسه الألوهية ، لذلك فإن الإنسان الغربى فى حاجة ماسة إلى نسق أخلاقى مستقل عنه ليكبله ويضع له حدوداً لا يتعداها ، أى أننا سنخرج - شئنا أم أبينا- من المادة والحياد إلى الأخلاق والالتزام ، ومن الدنيا المكتفية بذاتها إلى عالم مختلف يضع حدوداً أو إطاراً للأشياء .

إن هذه الأرض التى نعيش فيها لم يعطها لنا الله - سبحانه وتعالى - بل استخلفنا فيها لنعمرها، ورثناها من آبائنا وأجدادنا وسوف نورثها لأبنائنا وأحفادنا ، لذلك يجب المحافظة عليها وتنميتها باستمرار.

البروتستانتية هي أحد المذاهب المسيحية المنتشرة بشكل واسع في شمال أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا . ويرجع أصل كلمة بروتستانتية إلى كلمة بروتستانت ومعناه المحتج . وقد نشأ هذا المذهب في ألمانيا في النصف الأول من القرن السادس عشر على يد (مارتن لوثر 1483-1546) .

ويعتبر مارتن لوثر هو المخلص للمسيحيين من سلطات بابا الكنيسة الكاثوليكية في روما ، حيث شاهد مارتن لوثر في أثناء زيارته للكنيسة الكاثوليكية فساد البابوية ، ومظاهر الانحلال الخلقي المتفشى في كل الأوساط الكنسية ، ومن ثم تولد لديه عزم قوى على ضرورة إصلاح عقيدة الكنيسة وممارستها .

وتعتبر " صكوك الغفران " هي الشرارة التي أشعلت ثورة مارتن لوثر ضد البابا وكنيسة روما . حيث أصدر البابا (ليو العاشر 1517م) ما أسماه غفرانا شاملا للعالم!! يتمتع به من يشتري " صك الغفران " ! . على أن تخصص الأموال المتحصلة من بيع هذه الصكوك لبناء كنيسة القديس بطرس في مدينة روما .

أعلن مارتن لوثر معارضته الشديدة هذا الانحراف البابوي ، مؤكدا على أن البابوية ليست مفوضية إلهية ، ولا يحق لها إصدار مثل هذه الصكوك التي يتم الاتجار بها لإيهام الناس بالإعفاء من آثار الخطيئة . ورأى مارتن لوثر أن تلك الصكوك تضعف الشعور بالندم الذي يثير ارتكاب المعاصي والذنوب ، وتجعل من الخطيئة أمرا عاديا يمكن تسويته ودنيا بصفقة تعقد مع بائع صك الغفران .

أرسل بابا روما " صكوك الغفران " عام 1517م لتباع في ألمانيا ، مما أدى إلى ثورة عارمة من مارتن لوثر ، واعتبر تلك الصكوك تحريفا للدين ، وتحويلا له إلى تجارة دنيئة . ودعا إلى العودة إلى تعاليم الكتاب المقدس ، وعبر عن ذلك في صورة وثيقة علقها على

باب كنيسة ويتنبيرج وضع فيها 95 من الخطايا والمساوي التي يرتكبها بابا روما وكنيسته ، ثم نشرها في كتاب أسماه " الاعتراضات أو الأطروحات الخمسة والتسعون " .

تعاطف مع مارتن لوثر عدد كبير من العامة والأمراء الألمان على السواء ، خاصة وأن مارتن لوثر يؤيد نزعة الدولة الألمانية في تولي الشؤون الكنيسية والانفصال عن سطوة ونفوذ بابا روما وكنيسته . وقد انضم إلى مارتن لوثر عدد من رجال اللاهوت ، واشتد صراعه مع كنيسة روما وأعلن لوثر " أن البابا في روما ما هو إلا لص وزعيم عصابة ، وأن عصابته تحمل اسم الكنيسة وأن روما هي بحر من الدنس والقذارة وهوة من الظلم ليس لها قرار ، ويجب التلاحم لإزالة هذه اللعنة المشينة التي حاقت بالبشرية .

في عام 1520م تولى مارتن لوثر إدارة الكنيسة في ألمانيا ، ورفض المثول أمام البابا عندما استدعاه إلى روما ، مما أدى إلى إصدار البابا عام 1521م قراراً باباويًا بحرمان مارتن لوثر من كهنوته ، واحراق كل كتاباته . وعندما تلقى لوثر قرار البابا بحرمانه قام بإحراق هذا القرار وسط الجموع الحاشدة في ويتنبيرج الذين أعلنوا خروجهم على الولاء لكنيسة روما الكاثوليكية ، وذلك بتحريض من بعض الأمراء الألمان من أصحاب دعوى الانفصال .

لقد أدت المعركة التي خاضها مارتن لوثر ضد بابا روما وكنيسته إلى تقسيم الكنيسة في الغرب إلى قسمين : كاثوليكية ، وبروتستانتية .

وقد ساعدت كراهية أتباع كنيسة روما وتذمرهم من الضرائب التي فرضها عليهم البابا إلى سرعة انتشار المذاهب البروتستانتية ، فضلاً عن تأييد الفلاحين للأفكار التي نادى بها مارتن لوثر أملاً في الحرية التي بشر بها كوسيله لإعتاقهم من أغلال العبودية التي فرضها عليهم الإقطاع والأمراء .

لقد دعا مارتن لوثر لإجراء إصلاح اجتماعي واقتصادي يتضمن: إلغاء الضرائب والإتاوات والمساعدات المختلفة التي تطلبها روما من الأتباع ، وإنهاء سلطة أولوية الكنيسة على الملوك والأمراء ، والحد من الأديرة وامتيازاتها ، وتحريم الربا ، وحظر الفائدة على القروض ، وإبطال فرض العزوبة على الكهنة ، وإغلاق بيوت الدعارة !

وقد بدأ مارتن لوثر بنفسه فتزوج وعاش مع زوجته حتى مات عام 1546م ،
وسمح للرهبان بالزواج، وسمح لحاكم إحدى المقاطعات الألمانية بالجمع بين
زوجتين.

البروتستانتية واليهودية :

كانت الكنيسة الكاثوليكية في روما تتمسك باعتقادها: بعدم وجود ما يسمى بالأمة
اليهودية ، وأن الرب طرد اليهود من فلسطين عقاباً لهم على صلب المسيح عيسى عليه
السلام، وأن فلسطين أصبحت إرثاً للمسيحيين دون اليهود . إلا أن مارتن لوثر في
خضم خصومته مع بابا روما ، وجد أن من الأفضل التقرب إلى اليهود ، فقام بتأليف
كتاب صغير عام 1523م بعنوان " كون يسوع المسيح ولد يهودياً . " . يقول
مارتن لوثر في هذا الكتاب: " سوف أسوق النصوص الواردة بالكتاب المقدس التي
تدل على أن يسوع المسيح كان يهودياً ولد من امرأة عذراء ، لعلّ بذلك أكتسب بعض
اليهود لاعتناق العقيدة المسيحية، إن الحمقى من الباباوات والقسس ورجال الدين
ذوى القلوب الفظة تعاملوا مع اليهود بطريقة جعلت كل من يأمل أن يكون مسيحياً
مخلصاً يتحول إلى يهودى ، لو كنت يهودياً ورأيت كل هؤلاء الحمقى يقودون
ويعلمون العقيدة المسيحية فسأختار على البديهة أن أكون خنزيراً بدلاً من أن أكون
مسيحياً، لقد تعاملوا مع اليهود على أنهم كلاب لا بشر " .

ويؤكد مارتن لوثر أوجه التقارب مع اليهود فيقول : " إن اليهود هم أنسابنا
وأولاد عم إلّنا ! ولو جاز لنا التباهى بدمه وجسده لقلنا: إن اليهود أقرب إلى إله
المسيحيين من المسيحيين أنفسهم " . ولم يتوقف لوثر عند هذا الحد بل خاطب
المسيحيين في هذا الكتاب بقوله : " قبل أن نتفاخر بموقفنا يجب أن نتذكر أننا مجرد
أغراب، أما اليهود فيتصل نسبهم بالمسيح نحن غرباء وأبعد ، أما هم فأقارب
وبنوع مومة وإخوة الرب " !! .

إن دعوة مارتن لوثر للتسامح ومحاورة اليهود بالرفق لم تدم طويلاً ، فقد نكص
الرجل على عقبه وارتد إلى التقيض ، وجاء أول إعلان عن خيبة أمله في اليهود في
رسالة كتبها عام 1532م يسب فيها اليهود قائلاً : " إن هؤلاء الكلاب يسخرون منا،

ويتهكمون على ديننا. وفي عام 1539م كتب قائلا " إنى عاجز عن تحويل اليهود إلى المسيحية ، إن سيدنا يسوع المسيح لم ينجح في ذلك ، لكنى أستطيع أن أكمم أفواههم " .

وفي كتابه الثانى " اليهود وأكاذيبهم الصادر عام 1543م ، صب مارتن لوثر جام غضبه على اليهود فى حملة ضارية ، طالبا من الأمراء الألمان العمل على اقتلاع اليهود من الأرض الألمانية وإذلالهم وعزلهم ومصادرة ثرواتهم وطردهم إلى أرض كنعان من حيث جاءوا لأنهم حاقدون وقتلة أسلموا المسيح للجلاد الرومانى فهم المسؤولون عن صلب المسيح . ثم إن اليهود يعتدون على أقدم المقدسات المسيحية ، إذ يصفون السيدة مريم العذراء أم المسيح بالـ (.) ، ثم إن اليهود ينكرون رسولية المسيح لأن المسيح اليهودى المنتظر لابد وأن يجيء فى صورة محارب .

وقد زاد بغض مارتن لوثر لليهود عندما نجحوا فى تحويل بعض اتباعه إلى اليهودية فقال عنهم : " نحن الألمان نعرف ما هو اليهودى ، إذ يستحيل تحويل يهودى إلى المسيحية كما يستحيل تحويل الشيطان ، إن قلب اليهودى قاس كالخشب .. كالحجر .. كالحديد .. كالشيطان نفسه ، ولكن هذا لا يمنع دخول بعض اليهود فى المسيحية من أجل تخريبها وتدميرها من الداخل ، فقد اعترف حاخامات اليهود بأنهم أمروا بعض أبنائهم بالدخول فى جسم الكاثوليكية وذلك لتخريب الكنيسة من الداخل ، فقد صرح أكثرهم قائلين بأننا نحن الذين خلقنا الإصلاح الدينى للمسيحيين ، إن " جون فكالفن " كان واحدا من أولادنا - يهودى الأصل ، أمر بحمل الأمانة وشق الكنيسة الكاثوليكية فى سويسرا .

وبرغم تبرؤ مارتن لوثر من أفكاره الأولى عن اليهود، وهجومه عليهم فى كتاباته التالية ، إلا أن اليهود استغلوا الأفكار التى طرحها لوثر فى كتابه الأول " د. ون المسيح ولد يهوديا " حيث أدركوا أنها تحمل بذور انقلاب تاريخى فى النظرة المسيحية لليهود ، لذلك نشر اليهود هذا الكتاب ووزعوه على نطاق واسع فى أوروبا .

ورغم تراجع مارتن لوثر وهو أبو البروتستانتية، ومؤسس كنيستها، وهجومه على اليهود، إلا أن كل الكنائس المسيحية الأصولية البروتستانتية عميت عن تراجعهم

وتصويباته بكتابه الثانى ، فترأت مما صدر عن لوثر ضد اليهود ، والتزمت بأفكاره الأولى حول يهودية المسيح وقرابته لهم .

وهكذا انتهى "الإصلاح المسيحى" الذى قام به مارتن لوثر وكالفن "بتهويد المسيحية" ، وكان هذا التهود نتيجة منطقية لمشكلة فى المصادر العقائدية للمسيحية جعلت البروتستانت يعتمدون "العهد القديم" وهو التوراة أكثر مما يعتمدون "العهد الجديد" وهو الإنجيل . وقد أدى هذا المزيج الاعتقادى إلى أن تتحول المسيحية البروتستانتية من اضطهاد اليهود بتهمة قتل المسيح إلى حد يقترب من عبادتهم باعتبارهم "أبناء الرب ، وأقارب ابن الإله ، وشعب الله المختار" وغير ذلك.

وهكذا لم تعد المصادر الاعتقادية عند المسيحيين تقتصر على العهد الجديد فقط وهو "الإنجيل" بل تشمل أيضا العهد القديم "التوراة" ، ولما كان حجم العهد القديم أكبر بكثير من العهد الجديد ، لذلك كان تأثير اليهودية فى المسيحية واردا ومنطقيا . ففى الترجمة العربية للكتاب المقدس يبلغ عدد صفحات العهد القديم 1258 صفحة ، بينما عدد صفحات العهد الجديد 420 صفحة ، أى أن التوراة تمثل 75٪ من الكتاب المقدس الذى يؤمن به المسيحيون . وإذا أضفنا لذلك أن الإنجيل عبارة عن أربعة أناجيل تحكى نفس القصة وجدنا أن نسبة 90٪ تقريبا مما يعتبر اليوم كتابا مقدسا عند المسيحيين هو كتاب توراتى عبرانى ، وأن الإنجيل لا يمثل أكثر من 10٪ منه . ومن هنا يظهر الأثر الكبير للعهد القديم (التوراة) على المسيحية المعاصرة .

البروتستانتية البيوريتانية :

انقسمت الكنيسة البروتستانتية إلى قسمين : الحركة اللوثرية التى ترجع إلى مارتن لوثر المؤسس الحقيقى للكنيسة البروتستانتية ، ثم انشق عنها جون كالفن وأسس الكنيسة الكالفينية، وقد انتشرت الحركة الإصلاحية الكالفينية أولا فى سويسرا ثم فرنسا وهولندا وإنجلترا، ثم لاحقا فى الولايات المتحدة الأمريكية . ثم بعد ذلك خرج من المذهب البروتستانتى عدة فرق أصولية عرفت بالمسيحيين اليهود مرجعها العهد القديم (التوراة) .

وقد ساعد انشقاق مارتن لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية في روما على انشقاق الكنيسة البريطانية الانجليكانية واستقلالها أيضا عن روما عام 1534م في عهد الملك هنري الثامن ، بسبب رفض بابا روما فسخ زواج الملك ليتزوج بأخرى . وقد عين الملك هنري نفسه زعيما لكنيسة كانتبرى . وفي عهد ابنته اليزابيث الأولى التى كانت تتبع المذهب البروتستانتي ثم عملت على ترسيخ البروتستانتية الإنجليكانية كمذهب لإنجلترا بدلا من الكاثوليكية .

وفي عهد اليزابيث الأولى انشقت البيوريتانية (وهـ . م أتبـ ١٠٠٠ عـ ١٦٠٠ ألفن) عن البروتستانتية الإنجليكانية . ومصطلح البيوريتانيون يعنى الصفايين أو الأتقياء أو المتطهرين أو التطهريين، غير أن هذا المصطلح عند المذاهب المسيحية الأخرى يعنى التشدد أو المتشددين .

بعد وفاة الملكة إليزابيث الأولى تولى الملك جيمس ستورات حكم إنجلترا، وكان هذا الملك بروتستانيا مسيحيا ، وكان معظم حاشيته من البيوريتان . وقد تبدل الحال بعد موت هذا الملك ومجيء ابنه الملك تشارلز الأول الذى شبه البيوريتان بفرعون مصر . وقد اعتقل في عهد هذا الملك الأساقفة البيوريتان، وأمر بأن تقطع أذان بعض الأساقفة البيوريتان الذين كتبوا عرائض احتجاج ضد الأسقف لود رئيس أساقفة كانتبرى ، لذلك شهدت هذه الفترة هجرة ملحوظة للبيوريتان إلى الولايات المتحدة الامريكية .

ولم يستمر الوضع طويلا فقد استطاع القائد البيوريتانى "أوليفر كرومويدل" الإطاحة بالملك تشارلز الأول الذى أُعدم، وتم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في إنجلترا . وبذلك وصل البيوريتانيون لحكم بريطانيا في القرن السابع عشر وقد مثل هذا أول ظهور للصهيونية المسيحية في إطارها السياسى . وفي هذا الوقت راج في بريطانيا اعتقاد بأن عام 1666م سيكون عاما حاسما وفارقا في تاريخ اليهود ، إما بتحويلهم إلى المسيحية أو باستعادة مملكتهم الزمنية على أرض فلسطين ، ولكى يتم تنصير اليهود لابد من العمل على تجميعهم في بريطانيا .

لكن كرومويل رئيس الحكومة البريطانية البيوريتانية رأى أن الوجود اليهودى في فلسطين هو الذى يمهد للمجيء الثانى للمسيح عيسى -عليه السلام- وفي عام

1649م قدم الأساقفة البيوريتان مذكرة للحكومة البريطانية مطالبين بأن يكون للشعب الإنجليزي شرف حمل أولاد وبنات إسرائيل إلى الأرض التي وعد الله بها أجدادهم .

وهكذا برزت في إنجلترا أول دعوة لما يسمى ببعث الأمة اليهودية على أرض فلسطين، ومنذ ذلك الحين تجاوزت اليهودية حدود العقيدة الدينية لتتخذ بعدا سياسيا يقوم على فكرة العهد الإلهي بالأرض المقدسة للشعب المختار .

بعد استعادة الملك تشارلز الثاني لعرش أبيه مرة أخرى من أيدي البيوريتان ، بدأ البيوريتان في الهجرة الثانية إلى أمريكا ، وازدادت هجرتهم في عهد الملك جيمس الثاني الذي حاول منذ توليه الحكم عام 1685م إعادة إنجلترا للمذهب الكاثوليكي، وإخضاع الكنيسة البريطانية لكنيسة روما . وكان من الأسباب الأخرى التي دفعت البيوريتان إلى مغادرة إنجلترا هو اعتقادهم أن الرب على وشك إنزال عقابه بالأمة التي ترفض إطاعة أوامره ، وكذلك اعتقادهم بقرب قيام الساعة فلجئوا إلى الأرض الجديدة في أمريكا . لقد امتزج البيوريتان مع اليهود في أمريكا فوصفوا أنفسهم بأنهم أطفال إسرائيل، وأطلقوا على اليهود اسم أبناء الرب، وفرضوا تعلم اللغة العبرية بالمدارس والجامعات .

ولما كان الكاثوليك قد هاجروا أيضا إلى أمريكا ، لذلك دب الذعر والخوف في قلوب البروتستانت ، الأمر الذي دفعهم إلى المطالبة بتطبيق مبدأ فصل الدين عن الدولة ، وهو ما تم في صلب الدستور الأمريكي من خلال التعديل الدستوري الأول عام 1789م ، حيث نص هذا التعديل على : " يحظر على الكونجرس إصدار أى قانون يرسخ الدين أو يمنع ممارسته " ، وقد ألحقت بهذه الفقرة الدستورية فقرة أخرى تنص على الحق في حرية التعبير الديني للأديان كافة .

الإنجيلية البروتستانتية :

انقسمت البروتستانتية في أمريكا حول قضية الإيمان بحرفية الكتاب المقدس ، ومن ثم ظهرت ثلاثة اتجاهات أو مذاهب من عباءة البروتستانتية التقليدية وهى : البروتستانتية الأصولية ، ثم البروتستانتية الليبرالية ، ثم البروتستانتية الإنجيلية . ويرى أتباع البروتستانتية الإنجيلية أن العالم اليوم يعيش مرحلة الغفران السادس، وما قبل

الأخير الذى سينتهى بحرب تستمر سبعة أعوام يخوضها المسيح الدجال فى معركة هارميجدون . وأن المعركة ستنتهى بنجاة 144 ألف يهودى فقط ، وقد ترتب على هذا الاعتقاد دعم كبير لعودة اليهود إلى فلسطين لإقامة دولتهم المزعومة حتى تتحقق عودة المسيح عيسى -عليه السلام⁽¹⁾ حيث لن تتحقق عودة المسيح إلا بعد أن يسيطر اليهود على كافة الأرض الموعودة .

ويطلق على الإنجيلية فى الولايات المتحدة " المسيحية الجديدة " كما يطلق على الإنجيليين اسم المسيحيين الجدد أو المولودين من جديد . وترجع هذه التسمية إلى أن الإنجيليين هم أولئك البروتستانت الذين يؤمنون بأنهم مروا بعد البلوغ بمرحلة إيمانية قد جعلتهم فى حالة من التطهر وكأنهم ولدوا من جديد ، أى أنهم على اعتقاد بأن تجاربهم العاطفية أو الإيمانية قد منحت لهم الخلاص الأبدى من الذنوب .

ويرى كثير من الإنجيليين على أن عام 1976م هى سنة الميلاد الثانى للإنجيليين ، حيث شهدت انضمام عدد كبير من رموز المجتمع الأمريكى للمذهب الإنجيلى وعلى رأسهم الرئيس الأمريكى جيمى كارتر ، الذى أعلن أنه مر بحالة الميلاد الثانى وأصبح مولوداً من جديد .

فى 1989م تم تأسيس " حركة التحالف المسيحى بأمريكا " على يد القس الإنجيلى بات روبرتسون بغرض تشكيل كتل يجمع أصوات المسيحيين الأصوليين بهدف التأثير على الانتخابات الأمريكية . وقد عكس هذا الكيان قدرة التيار الإنجيلى على الانتقال من الحركة ذات الطبيعة الدينية إلى المؤسسة التى يمكن أن تلعب دوراً سياسياً .

وقد أتاح تأسيس التحالف واكتسابه الشكل المؤسسى قدرة على التأثير والضغط على السلطتين التشريعية والتنفيذية ، فضلاً عن إقامة شبكة علاقات مع كبار الاقتصاديين والسياسيين . ثم امتدت تلك العلاقات لتلقى بانعكاساتها على السياسة الخارجية الأمريكية . وقد سعى هذا التحالف الإنجيلى إلى اكتساب أعضاء جدد ومد

(1) من أجل ذلك ثار اليهود المتشددون على أرييل شارون عندما قرر الانسحاب الأحادى من قطاع غزة وفرحوا جداً عندما أصيب بالجلطة الدماغية وقالوا: هذا انتقام الرب منه عقاباً له على الانسحاب من قطاع غزة .

صلاته بجماعات سياسية واجتماعية متعددة داخل الولايات المتحدة لاكتسابهم كحلفاء محتملين .

ويعتبر القس بات روبرتسون على رأس قائمة اليمين المسيحي المتطرف ، بل إنه هو أحد أهم عناصر المشهد الأصولي الأمريكي ، فهو ينتمى للطائفة التبديرية، وهى أكثر الطوائف الإنجيلية تشدداً لاسيما فى تدعيمها لإسرائيل والدعوة لإعادة بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى من أجل أن يتمكن المسيح من العودة .

وقد ارتبط القس بات روبرتسون بعلاقات وثيقة مع الرئيس بوش الابن الذى أعطى اهتماما كبيرا بدعم المؤسسات الكنيسية المسماة " جيوش الرحمة " وذلك بشكل لم يسبقه فيه أى رئيس أمريكى .

الصهيونية المسيحية فى الولايات المتحدة الأمريكية :

من العجيب حقا أن الصهيونية المسيحية هى التى أوجدت فكرة الصهيونية اليهودية وليس العكس ، بل أن أعجب ما فى الأمر أن البروتستانت والإنجيليين هم من أسهموا بشكل مباشر فى خلق وإيجاد الصهيونية اليهودية ، ثم إيجاد المشروع الصهيونى بعد ذلك فى القرن التاسع عشر .

قبل أن تتأسس إسرائيل بزمان بعيد ، نجد أن البروتستانتية، ولاسيما الإنجيلية آمنت بحتمية البعث اليهودى، أو ما يسمى بحق العودة للشعب اليهودى إلى أرضه، وإقامة دولته فى فلسطين تمهيدا للعودة الثانية للمسيح، وتأسيس مملكة الألف عام .

إن الصهيونية المسيحية فى مناصرتها للكيان الصهيونى، وفى صهيونيتها أشد تطرفا وغلوا من صهيونية كثير من يهود أوروبا والولايات المتحدة ، بل قد تبدو فى أحيان كثيرة أشد تطرفا وغلوا من بعض يهود إسرائيل أنفسهم . وذلك لأن الصهيونية المسيحية تنظر إلى إسرائيل على أنها قضاء إلهي ، ومن ثم يصبح دعم وتأييد إسرائيل هو التزاما دينيا فى سبيل مرضاة الرب ، وعليه تصبح معارضة سياساتها بمثابة خطيئة دينية .

وهكذا امتزجت كل من المعتقدات الدينية و السياسية، والادعاءات التاريخية فنشأت علاقة متميزة بين البروتستانتية واليهودية بشكل عام ، ثم بين الأصولية

البروتستانتية الإنجيلية وبين الصهيونية بشكل خاص ، فحدث التلاقى قبل أن تظهر الصهيونية كحركة ، وقبل أن يظهر هيترتزل ذاته .

وقد جسد المؤتمر الصهيونى اليهودى الأول الذى انعقد عام 1897م فى مدينة بال بسويسرا برئاسة تيودور هرتزل أول الخطوات العملية فى إشراف الصهيونية المسيحية على ولادة الصهيونية اليهودية . ويعتبر هذا المؤتمر نقلة نوعية وتغيراً فى موقف اليهود المتشددى الذين كانوا يرفضون التدخل البشرى لتجميعهم من الشتات ، ومساعدتهم لاستيطان فلسطين ، الأمر الذى يجب أن يتم بمشيئة الله عبر مسيحهم المنتظر ، الذى يطلقون عليه " المسيا " ، فقد كان الحاخامات يعارضون بشدة التجمع فى فلسطين قبل ظهور المسيا ويعتبرونه تدخلاً فى مشيئة الرب ، غير أن الضغط الشديد والمتواصل من قبل كل من الصهيونية المسيحية وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية قد أثمر ولادة الصهيونية اليهودية ومشروعها الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين .

وقد سعت الصهيونية المسيحية منذ بروزها قبل إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين إلى امتلاك كل الوسائل الكفيلة بالتأثير على الرأى العام الأمريكى ، وممارسة الضغوط السياسية على الإدارات الأمريكية المتعاقبة بغرض دعم هجرة اليهود إلى فلسطين وتبنى المشروع الصهيونى وإقامة الوطن اليهودى على أرض فلسطين ، من أجل ذلك استخدمت الصهيونية المسيحية كل وسائل العمل السياسى والإعلامى والكنسى ، فضلاً عن تقديم الدعم المادى لتسهيل ما سعى بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة ، وتيسير أمر هذه الهجرة ، كما أسهمت فى دعم وتمويل إنشاء مستعمرات يهودية استيطانية وزراعية على الأرض الفلسطينية .

وعقب قيام إسرائيل شهدت تلك الحقبة تنامياً ملحوظاً فى عدد ونشاط المنظمات الصهيونية المسيحية ، فقد اعتبرت الصهيونية المسيحية قيام إسرائيل بمثابة حدث أو إشارة تدل على صحة معتقداتها ، لذلك برزت عدة منظمات صهيونية مسيحية استطاعت السيطرة على خطاب الكنيسة ، وكثير من محطات التلفزيون والإذاعة ، قدمت عبرها برامج دينية ذات طابع جماهيرى وأسست جامعات ومدارس وأكاديميات ، ومراكز بحث وغيرها من الأنشطة بهدف دعم الدولة العبرية . ويقدر عدد المنظمات الصهيونية المسيحية داخل الولايات المتحدة بأكثر من مائتى منظمة يمتد نشاط كثير منها إلى داخل إسرائيل .

نصل إلى نقطة أخيرة : فلعل أهم المخاطر التي يعكسها تنامي الظاهرة الإنجيلية السياسية وما طرحه من منظومة قيمية توراتية – هي تلك الآثار السلبية التي ألفت أو توشك أن تلقى بظلالها على منظومة المجتمع الأمريكى، فالانسياق خلف تلك الرؤى والتصورات يمثل عملياً نقضاً للأساس الفلسفى الذى قامت عليه الولايات المتحدة ، وهذا فى حد ذاته أكبر تهديد قد تواجهه أمريكا بما يحمله من مخاطر على مستقبلها ووحدها .

ولعل ما يزيد من الآثار السلبية لتلك الظاهرة – أن الأمر هنا لا يقتصر على مجرد خلل فى التوازنات بين قوى داخلية ، بل يتعداه إلى مستوى العلاقات الأمريكية مع العالم الخارجى ، فمما لا شك فيه أن تنامي دور الإنجيلية السياسية قد أحدث وسيحدث تحولاً جذرياً فى سياسة الولايات المتحدة الخارجية – خاصة فى ظل تعمد فرض هيمنة قيمية أو أخلاقية تتوافق مع أطروحات الإنجيلية السياسية ، وهو ما قد يمثل تحولاً نوعياً فى التوازنات الاستراتيجية الأمريكية ، ومن المرشح أن تتزايد آثاره السلبية والخطرة على علاقات الولايات المتحدة مع العالم الخارجى .

لذا فإن تناولنا السابق لأيدىولوجية، وتاريخ الحركة يفضى بنا إلى نتيجة منطقية أو استشراف بديهي ، يمكن تلخيصه فى القول بأن القيم التى تدعيها الإنجيلية السياسية – هو أمر يلقي على الولايات المتحدة عبئاً لم تستطع أى من الدول أو المجتمعات تحمله بنجاح لفترة زمنية طويلة ، فالإصرار الواضح على التفوق دون مراعاة القيم والمصالح والثقافات الأخرى سوف يقود تدريجياً إلى تكتل دول العالم ضد الولايات المتحدة مما سيجعلها فى النهاية معزولة ومستنزفة .⁽¹⁾



(1) لمزيد من التفاصيل يرجع إلى : جمال سلامة على ، أمة قلقة ، أمريكا الديمقراطية ويمينها الدينى والمحافظ ، دار النهضة العربية، القاهرة ، 1429 هـ / 2008 م ، ص ص 443- 550 .

أدت الحداثة الغربية المنفصلة عن القيم الأخلاقية إلى ظهور كل من الصهيونية والنازية. والحداثة الغربية في جوهرها هي مقدرة الإنسان على تغيير القيم التي يؤمن بها بعد وقت قصير، وهذا يعود إلى الإيمان بأن العالم في تغير مستمر، وفي حالة صيرورة دائمة فلا ثبات لأى شيء، لا الواقع، ولا القيم، ولا الطبيعة البشرية ذاتها. إنه عالم لا تحكمه سوى إجراءات منفصلة عن القيم، وعندما يتحرر العالم من القيم الإنسانية والدينية والأخلاقية - تظهر قيمة واحدة قادرة على حسم الأمور، وهي القوة. لذلك فإن كلا من الصهيونية والنازية تعبير عملي عن هذه الحداثة الغربية.

فالصهيونية حركة استعمارية استيطانية إحلالية استخدمت مجموعة من الأساطير لتجنيد الجماهير اليهودية. هذه الأساطير مختلفة ومنفصلة عن الواقع الإنساني والتاريخي، ومع هذا تعاطف العالم الغربي معها تعاطفاً شديداً، ويرجع السبب في ذلك إلى حاجة الغرب لقاعدة عسكرية ضخمة تخدم مصالحه، والكيان الاستيطاني اليهودي في فلسطين يقوم بهذه المهمة على أكمل وجه.

بدأت الصهيونية بأكذوبة صارت فيما بعد شعاراً لها "أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض" والمسافة بين الأكذوبة الصهيونية والواقع الفلسطيني كانت واسعة جداً، لذا كان على الصهاينة أن يملئوا هذا الفراغ ويحسموا هذا التناقض. وكان الحل هو استخدام الإجراءات المنفصلة عن القيم الأخلاقية بحيث يُخلق "أمر واقع" أو حقائق جديدة "، أى أن ما يحسم الصراع في نهاية الأمر هو العنف الصريح والقوة الغاشمة.

ولتحقيق الأمر الواقع أو الحقائق الجديدة استخدم الصهاينة التكتيك المسمى "السر والبرج". فقد كانت العصابات الصهيونية تتسلل في المساء ويحيطون

الأرض التي يريدون اغتصابها بسور ، ثم يقيمون برجاً للحراسة يضعون عليه مدافعهم الرشاشة ، ثم يقومون بالزراعة المسلحة أى يحملون الفأس بيد والبندقية بالأخرى ، وبذلك تصبح الأرض أرضهم لأنهم قاموا بتنفيذ الإجراءات الدقيقة المنفصلة عن القيم. ويوضح هذا ما قالته "جولدا مائير" رئيسة الوزراء الإسرائيلية السابقة من أن رصاصة واحدة أكثر فاعلية من جميع قرارات مجلس الأمن.

وإذا كانت الشهادات التاريخية قد ظهرت في وقت متأخر من جانب المقاتلين الإسرائيليين الذين شاركوا في المذابح، فإن أهم الشهادات جاءت مبكراً عام 1948، ولكن في صورة عمل أدبي للأديب "سد.اميك يزهار" الذي شارك في الحرب كجندى، ثم قرر بعدها أن يضع تجربته ومشاهداته في رواية قصيرة بعنوان "خربة خزاعة" وهى اسم إحدى القرى الفلسطينية التى تعرض سكانها للجريمة التشريد العمدى تحت إرهاب السلاح. ويمكننا إذا وضعنا الشهادات التى تمكن بعض المؤرخين الإسرائيليين من جمعها فى الثمانينيات من العناصر التى شاركت فى أشهر المجازر وهى "دير ياسين" إلى جانب شهادة "ساميك يزهار" أن نتبين على نحو قاطع أن الاعتبارات الأخلاقية والإنسانية والقانونية كانت معدومة لدى القادة الإسرائيليين وجنودهم بالكامل ، كان الاعتبار الأهم والحاكم لتوجيهات القيادة وسلوك الجنود- هو إخلاء الأرض بضرأوة من سكانها لإقامة الدولة اليهودية.

إن غلبة وسيطرة ما يسمى فى الفكر السياسى الإسرائيلى "الد.. ضرورات الصهيونية" تلك التى تعنى تنحية كل المبادئ والاعتبارات الأخلاقية فى التعامل مع العرب- كانت السبب فى الحصار الذى فرضه النقاد الأدبيون على رواية "خربة خزاعة" ومحاولة التعتيم عليها والإقلال من شأن مؤلفها بعد الحرب ، خاصة أن "يزهار" قد نشر الرواية عام 1949 فور انتهاء المعارك.

يقول الكولونيل "مائير يائير" وهو الذى شارك فى مذبحه دير ياسين: إن الأوامر قد صدرت إلى القوات المشتركة من الهاجاناه والإرجون ولحى لاحتلال قرية دير ياسين واقتحمتها القوات عام 1948 ، ويؤكد الشاهد أن احتلال القرية العزلاء قد تم بسهولة وانتهت المعركة بعد مناقشات خفيفة حيث لم يكن بالقرية رجال مقاتلون،

وهو ما أدى بأهل القرية إلى الاستسلام بسرعة. بعد الظهر خرجت قوات الإرجون ولحى لتفتيش البيوت وراحت تطلق رصاص بنادقها، وتستخدم سكاكينها في أى شىء حتى يتحرك سواء في ذلك المسنون والنساء والحوامل والأطفال، كما تم نقل 25 رجلاً عربياً على «لورى» إلى منطقة فيها أحد المحاجر، وراح الجنود يتسللون بالتنشيد على أجسادهم وبإطلاق النار عليهم حتى تم قتلهم جميعاً. أما شهادة الأديب "ساميخ يزهار" التى وضعها في عمل أدبي فتفيد أن وحدته قد تلقت أمراً بالتوجه إلى قرية "خربة خزاعة" وطرد جميع سكانها خارج الحدود حيث إنهم "إرهابيون". يصف الأديب حال القرية فنكتشف أنها خالية من الرجال المقاتلين، ولا توجد بها بندقية أو قطعة سلاح واحدة. يفيض الأديب في تصوير بؤس القرية، وضعف المسنين، وقلة حيلتهم واستسلامهم لأوامر الجنود الإسرائيليين وذعرهم من الرصاص الذى ينطلق في اتجاههم، ومن الحرائق التى قام الجنود بإشعالها في بيوتهم إلى أن تم تحميلهم على «لوريات» اتجهت بهم صوب الحدود لتلقيهم في العراء خارجها مشردين ليلقوا مصيرهم.

يقول الأديب يزهار: "من يذكر أنه كانت هنا قرية عربية تسمى "خربة خزاعة" لقد طردنا أهلها وورثناها منهم، لقد جئنا إليها، أطلقنا النار وحرقنا وفجرنا ودفعنا وطردنا". أما عن التعمد والوحشية في سلوك الجنود ودوافعهم فيقول يزهار "اقتل جيداً وبسرعة، اقتل كثيراً دفعة واحدة «وبحرفنة»، فليسقط عربيان برصاصة واحدة، وثلاثة إن استطعت ... لا مفر من ذلك". هكذا يصور يزهار في روايته الحالة الفكرية أو النموذج الفكرى الذى دُرب عليه الجنود الإسرائيليون.. القتل بدم بارد، وبدون أى تردد مع الإكثار من القتل والاقتصاد في الذخيرة، والمبرر الذى يوفر الدافع ويجرد الجندي من أى مشاعر إنسانية تجاه الضحايا العربية البريئة - هو الضرورة الصهيونية لإقامة دولة لليهود على أنقاض وحطام الشعب الفلسطيني. وإذا كانت الشهادة التى قدمها يزهار تتضمن وصفاً لمشاعر اللامبالاة لدى الجنود بصرخات الأمهات والأطفال وتنفيذ المهمة بأعلى درجة من الوحشية، فإنه يصور كذلك نوع التعليم والتلقين الأيديولوجى الصهيونى الذى تلقاه الجنود قبل دخول ساحة المعركة حيث يقول في روايته مستذكراً: "اقتل جيداً يا ابنتا العزيز.. اقتل بملاء

ذراعيك، اقتل من أجلنا بقدر الخير الذى أعطيناه لك عندما ربيناك صغيراً وعلمناه لك، اقتل بوفرة، اقتل كثيراً حتى نحصل فى النهاية على عالم جميل هادئ ملك لنا.. لا تتردد واقتل.. اقتل.. اقتل". إن هذه الفقرة فى رواية "خربة خزاعة" تجسد بوضوح طابع الحرب التى وقعت بين "الهاجاناه والإرجون ولحى" وهى المنظمات الحربية الرئيسة الصهيونية ضد السكان المدنيين فى المدن والقرى العربية.. إن هذه الفقرة تفصح لنا عن نوع التوجيه الفكرى والتعبئة النفسية الكامنة وراء مشاهد القتل الوحشى والإبادة الجماعية والطرده والتشريد لمئات الألوف من الفلسطينيين.. وإذا كانت إسرائيل فى عام 2008م تحتفل وتبتهج بعد ستين عاماً، فإن علينا أن نذكرها بأن المسئولية تجاه مأساة الشعب الفلسطينى المشرّد ما زلت فى رقبتها هى وحلفائها فى الغرب.

لقد ارتد عدد كبير من مؤسسى الحركة الصهيونية عنها عندما اكتشفوا زيف شعارها "أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض"، ففلسطين ليست أرضاً بلا شعب، إنها مأهولة بالسكان العرب، لذلك وجه "ماكس ز. وردو" اللوم إلى هرتزل فى المؤتمر الصهيونى الأول، لأنه لم يخبره أن فلسطين أهلة بالسكان، فهذا "هرتزل" من روعه وأخبره أن الأمور ستسوى. كذلك كان "حاييم وايزمان" - أول رئيس دولة لإسرائيل - يعرف بوجود العرب، وكان دائم الحديث عن ضرورة التآخى معهم. "وناثان برنهام" الذى نحت كلمة "ص. هيونية" والذى أسس الحركة مع "هرتزل"، سئم الأكذوبة والعنف الكامن فيها، فارتد عن الصهيونية، ورفض الحضارة الغربية المادية بأسرها وتبنى اليهودية الأرثوذكسية. أما "يهودا م. اجنيس" أول رئيس للجامعة العبرية، فقد قضى معظم حياته يحاول إيجاد صيغة للسلام بين العرب واليهود، وفى آخر حياته رفض إعلان الدولة الصهيونية وحارب الفكرة ذاتها.

أما "آحاد هعام" وهو أهم فلاسفة الصهيونية، عندما شاهد دماء العرب تنزف بغزارة فى فلسطين، قال قولته الشهيرة "لو كان هذا هو الماشيح" أى الم. سيح المخلص "فإنى لا أود رؤية عودته". أما "إس. رائيل زانجويل" القصاص البريطانى الذى يقال: إنه نحت الشعار المتناسق "أرض بلا شعب. شعب بلا أرض" فقد أدرك العنف الكامن فى المشروع الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين

فرفض هذا المشروع ، وأسس ما يسمى بالحركة الصهيونية الإقليمية؛ أى: حل المسألة الصهيونية عن طريق العثور على أرض خالية من السكان فى أحراش إفريقيا أو جبال أمريكا اللاتينية . عشية إعلان " دولة إسرائيل " سحب "بن جوريـون" كرسيا وانفرد بعيداً عن الاحتفالات، وحين سأله " يورى افنيرى " عن حزنه غير المتوقع فى ليلة يفترض أنها فرحة له ولكل اليهود قال "بـن جوريـون" عبارة الشهيرة: "الآن فقط بدأت أنهار الدماء فى الشرق الأوسط".

هذه هى اعترافات من خططوا ونفذوا الأكذوبة الصهيونية وكيف ارتدوا عنها عندما اكتشفوا حقيقتها.

إن الإجراءات المنفصلة عن القيم، تلك التى اتبعتها العصابات الصهيونية فى فلسطين ، والمتمثلة فى " سياسة الأمر الواقع والحقائق الجديـدة " - نابعة من الحضارة الغربية المنفصلة عن القيم الدينية والأخلاقية.



يرجع ظهور النازية إلى الهوان الذى أصاب ألمانيا بعد الحرب العالمية (الأوربية) الأولى وعزل الإمبراطور ، وخسارة الأرض ، وما طالبت به معاهدة فرساي ألمانيا من الاعتراف بالذنب عن الحرب ، والانهيار الاقتصادى ، ولاسيما التضخم الجامح فى مطلع العشرينيات، والارتفاع المطرد فى عدد العاطلين - 6 مليون عاطل عام 1932- كل ذلك جعل الألمان أكثر استعداداً لقبول هتلر.

وقد أدرك هتلر ما للسلطة المطلقة من سحر على الألمان الذين قتلهم الشعور بالذلة والهوان لانعزالهم، وتفكك مجتمعهم من حولهم فقال فى كتابه كفاحي: "إن نفسية الجماهير لا تستهويها شخصية الفاتر الواهن، وإن قويا يخضعها لخير عندها من ضعيف تحكمه . وهى تؤثر من يأمرها على من يستجديها ، ويثلج صدرها عقيدة لا تتسامح مع غيرها، وتفضلها على حريات تناها فلا تنتفع بها إلا قليلا . وهى عرضه دائما للشعور بأنها قد خذلت ، كما أنها غافلة عما تتعرض له من ترهيب روحى مشين ، واستغلال شنيع لحريتها الإنسانية".

لقد أدرك هتلر قيمة الاجتماع الجماهيرى، والاستعراض والموكب ، فى التغلب على مشاعر الضياع والانعزال وتوجيهها صوب جماعة هرمية جديدة متماسكة. فالفرد فى المجتمع الحديث يشعر بالانعزال، ويصاب بسهولة بالخوف من الوحدة ، ولكنه يجد فى الاجتماع الجماهيرى صورة جماعة متماسكة أكبر، من شأنها أن تترك فى نفسه أثرا مقويا مشجعا ، حيث يجد حوله الآلاف من الناس يشاركونه آراءه، فيستسلم هو نفسه للتأثير السحري لما يطلق عليه "إحياء الجماهير". ولم تكن الدولة النازية إلا أسوأ النظم الشمولية التى اجتاحت أوروبا فى الربع الثانى من القرن العشرين ، مثل: الفاشية فى إيطاليا، و الستالينية فى روسيا، وامتدادها فى أوروبا الشرقية.

وانطلاقاً من هذا الأمر الواقع المتجرد من كل أعباء القيم الأخلاقية بدأت النازية في تشييد دولتها القوية، وبدأت أفران الغاز. ومن المعروف أن أفران الغاز لم تشيد في بداية الأمر من أجل اليهود وإنما شيدت أفران الغاز أول الأمر من أجل العجزة وضعاف العقول وغيرهم من البشر عديمي الجدوى والفائدة الذين يطلق عليهم اصطلاح "أفواه تأكل ولا تنتج" "Uselessealers" ولا يمكن الاعتراض على أفران الغاز لأنها لن تقضى على شيء نافع من منظور مادي، وإنما ستقضى على شيء لا نفع من ورائه بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة؛ أى: دراسات الجدوى العلمية المادية المحايدة المنفصلة عن القيم الأخلاقية، ثم استخدمت أفران الغاز بعد ذلك للقضاء على الجنود الألمان الذين كانوا يسقطون جرحى في المعارك، لأن عملية تمريرهم وإطعامهم كانت تمثل عبئاً على الاقتصاد الألماني.

ثم طبق هذا المنطق العلمى المادى بعد ذلك على اليهود باعتبارهم أقلية عديمة الفائدة. فيهود شرق أوروبا الذين تدفقوا على ألمانيا، كانوا عبئاً على الاقتصاد الألماني، فأعداد كبيرة منهم كانت لا تملك المهارات التى يتطلبها الاقتصاد الألماني، كما كان من بينهم نسبة كبيرة من المشتغلين بالمهن الهامشية مثل الدعارة، وتهريب المخدرات. وقد حاول النظام النازى، في بداية الأمر التخلص من يهود شرق أوروبا بإعادتهم إلى دولهم الأصلية إلا أن هذه الدول أغلقت الأبواب فى وجوههم!

وعندما فشلت الوسائل العادية لإعادة يهود شرق أوروبا إلى دولهم الأصلية، كان لابد من اتخاذ إجراءات أخرى ضد اليهود وغيرهم من العناصر التى لا تتسم بالكفاءة مثل: العجزة، وأبطال المقاومة فى فرنسا. ومن أهم هذه الإجراءات وأكثرها كفاءة معسكرات الاعتقال النازية، والتى كانت تقع على مقربة من المدن وليس داخلها لسهولة نقل المعتقلين، وتجنب تعطيل المرور. وعندما يصل المعتقلون يتم تقسيمهم إلى أطفال، وعجائز، ونساء، وغير قادرين على العمل، ثم رجال ونساء قادرين على العمل يفرض عليهم القيام ببعض التمرينات الرياضية حتى يحتفظوا بمستوى عال من اللياقة البدنية.

وكان على إدارة كل معسكر أن تعظم الربح بكل الوسائل الممكنة ، مثل أعمال السخرة بالنسبة للقادرين على العمل ، أما العناصر عديمة الفائدة فيتم تصنيفها والاستفادة من أجسادها بطرق مختلفة: حشو الأسنان الذهبي يرسل إلى الخزنة الألمانية، الشعر البشرى يصنع منه فرش الأحذية، أما الشحم البشرى فكان يستخدم في صناعة بعض أنواع الصابون.

كان هذا الأمر يتم في هدوء وموضوعية شديدة ، فمدير المعتقل كان يجلس في بيته مع زوجته وأولاده يستمتع بكل منتجات الحضارة دون أى شعور بأى أعباء أخلاقية تجاه الذين يحرقون في أفران الغاز ، لأن كل شيء يتم في جو علمى معملى رهيب. إن النازية تمثل التطبيق العملى للحضارة العلمانية الغربية الحديثة لأنها نزعت القداسة عن كل شيء ، وحكمت على الواقع بمقاييس مادية متحررة تماما من كل قيم أخلاقية. ولم يستثن أحد من المقصلة العلمية الإجرائية الباردة ، لا العجائز ولا الأطفال ولا حتى الجنود الألمان الجرحى أنفسهم ، إنها حيادية عملية تستحق الإعجاب والتقدير ، تماما مثل إعجاب الغرب بدولة إسرائيل الصهيونية التى تستند في وجودها على مقصلة علمية كفء صنعت في الولايات المتحدة الأمريكية، دون أن يكون لوجودها سند من أى قيم أخلاقية ، إنما سندها الوحيد في الوجود هو سياسة الأمر الواقع بوسائله المختلفة: فوهة المدفع، والبندقية، والقنبلة، والصاروخ، والحصار، والحواجز المتتابعة التى تقطع أوصال القرى والمدن الفلسطينية.

تمثل النازية لحظة مهمة في تاريخ الحضارة الغربية الحديثة ، حيث تعامل هذه الحضارة الإنسان معاملة الأشياء . وقد حول المجتمع الألمانى فى الحقبة النازية هذه المعاملة إلى حقيقة واقعة ، وظهر ذلك جليا فيما يلى:

1- اعتمدت الشركات الألمانية الكبرى على تسخير المعتقلين فى معسكرات الاعتقال حتى الموت، واستخدام أجسادهم حقولا للتجارب الطبية وجنت الأرباح من أفران الغاز المعتمدة على حرق أجسادهم.

2- تعتبر معسكرات الاعتقال النازية امتدادا لسعى الشركات الرأسمالية إلى تحقيق أقصى ربح ممكن ، مستخدمةً فى ذلك أحدث أساليب الإدارة المنفصلة عن القيم

الأخلاقية، على سبيل المثال اختيار شركة أى . ج . فاربن (*) معسكر أوسفيتز مقررًا لمصنع المطاط الصناعي ، وقد فعلت الشركة ذلك بناء على وعد من معسكر الاعتقال بتسخير نزلاته للعمل حتى الموت ، تحت إشراف فرقة العاصفة النازية .

3- لم يكن هؤلاء المدبرون في معسكرات الاعتقال يتصرفون تصرف المتعصبين المهووسين بل تصرف المديرين الأكفاء . يقول أحد المراقبين إن "هملر" وهو أحد مديري معسكرات الاعتقال عندما كان يتحدث إلى أحد عن الإبادة الجماعية " كان يتكلم عن إبادة الرجال والنساء والأطفال ببرود شديد ، كما يتكلم رجل الأعمال عن ميزانيته . ولم يكن في حديثه أثر للعاطفة ، أو ما يوحى بالانفعال . كما ورد في مذكرات ألبرت شبير وهو مهندس هتلر الأول " إن تركيزى على الإنتاج وإحصاءات الناتج ، طمس جميع الاعتبارات والمشاعر الإنسانية " .

بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر 2001م ، ظهرت حقيقة الادعاءات بأن الولايات المتحدة هى قلعة الديمقراطية، وزعيمة العالم الحر والمدافعة عن حقوق الإنسان فى العالم . فعلى المستوى المحلى اتخذت سلسلة من القيود التى تحد من الحريات الفردية للمواطن الأمريكى، منها على سبيل المثال: المحاكم العسكرية ، وقانون "الأدلة السرية" وبمقتضاه يقدم ممثل الادعاء أدلة لا يسمح لمحامى الدفاع بالاطلاع عليها . كما تم تطبيق إجراءات تتسم بالتمييز ضد أبناء الأقليات ، خاصة من ينحدر من أصول عربية أو إسلامية .

أما على المستوى الدولى ، فقد تم غزو أفغانستان ثم العراق ، وما صاحب ذلك وما تلاه من ممارسات وحشية مثل : استهداف المدنيين، وفضائح السجون السرية فى دول أوروبا الشرقية، وسجن جوانتنامو، وسجن أبو غريب . بالإضافة إلى اعتبار " كل من ليس مع الغرب فهو ضده " ، والتهديد باستخدام القوة ضد أى دولة لا تستجيب لشروط الهيمنة الأمريكية ، بدعوى أنها من الدول " المارقة أو مد.ور.ال.شر " . بالإضافة إلى الدعم الأمريكى المطلق للممارسات القمعية الإسرائيلية ضد الشعب

(*) شركة أى . ج . فاربن شركة ألمانية متعددة الجنسيات كانت فى ذلك الوقت تنتج العديد من المنتجات ابتداء من أسبرين باير حتى الجازولين الصناعى .

الفلسطيني، وإحكام الحصار حول قطاع غزة، ومنع وصول أى إمدادات إليه بسبب واحد وهو اختياره "لحركة حماس" فى انتخابات حرة ديمقراطية شهد لها الجميع بالنزاهة .

من الطبيعى أن تؤدى كل هذه التطورات إلى التساؤل عن النموذج المثالى الذى يطرح للديمقراطية، والنموذج المطبق فعليا على أرض الواقع. إذا نظرنا إلى الأوضاع فى الولايات المتحدة الأمريكية - سنكتشف أن النموذج الديمقراطى المطبق فى الواقع يختلف بشكل جوهري عن المثل الأعلى المطروح ، ويظهر ذلك جلياً فيما يلى:

1- أن المعركة الانتخابية فى الدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية تتكلف ملايين الدولارات ، ومن ثم فلا مكان فى هذه المعركة إلا للمرشح الغنى الذى يمكنه تدبير الأموال اللازمة للقيام بحملة انتخابية مستمرة وفعالة، ويمكنه شراء وسائل الإعلام، أما المرشح الذى لا يملك المال اللازم فمصيره التهميش الإعلامى. وهذا يعنى أن كبار الرأسماليين، وأصحاب المصالح وجماعات الضغط فى استطاعتهم التأثير فى الانتخابات بسبب ثرواتهم ، وأسباب أخرى لا علاقة لها بمصلحة الجماهير، أو مصلحة الوطن خاصة فى ظل سيطرة وسائل الإعلام.

2- استطاعت النخبة الحاكمة فى الولايات المتحدة تقسيم العمل والاختصاصات بينها وبين الجماهير، بحيث تصبح السياسة الخارجية، والأمن الخارجى من نصيب النخبة الحاكمة، على أن تترك الأمور المحلية مثل: النظام التعليمى، وصناديق المعاشات، والرعاية الصحية للجماهير . وبعد 11 سبتمبر 2001 نجحت النخبة الحاكمة فى الولايات المتحدة فى أن تجعل الأمن الداخلى من تخصصها عن طريق بث الرعب فى قلوب المواطنين الأمريكين، وعلى كل مواطن أمريكى أن يبلغ الحكومة عن أى حركة مشيرة للشك تصدر عن أى أحد من جيرانه، أى: أنها تطلب منه بطريقة مأكرة أن يتجسس على جيرانه.

3- يرجع نجاح النخبة الحاكمة فى فرض هذا التقسيم للعمل لعدة أسباب: أهمها على الإطلاق: الحدائة المادية الغربية وتلك التى نجحت فى جعل الإنسان الغربى إنساناً اقتصاديا جسدانيا تحركه فقط مصلحته الاقتصادية المباشرة وسعادته أو لذته. مثل

هذا الإنسان ذي البعد الواحد لا يكثر بأى أمور تقع خارج نطاق حواسه الخمسة، فالعالم الخارجى والسياسية الخارجية أمور بعيدة كل البعد عن بؤرة اهتمامه.

هذا الإنسان الجسبانى رغم اهتمامه بمصلحته الاقتصادية الخاصة إلا أنه لا يفهم التشابك فى العلاقات الاقتصادية، فهو يجهل تماماً العلاقة بين الإنفاق العسكرى فى أفغانستان والعراق وبين الإنفاق على الرعاية الصحية . إن تكاليف الحرب فى العراق تجاوزت 3 تريليون دولار حتى الربع الأول من عام 2008م ، وهذا المبلغ الضخم كان يمكن أن يزود أكثر من 30 مليون أمريكى بالسكن و 30 مليون أمريكى بالرعاية الصحية . إن مثل هذه الإحصاءات لا تجد طريقها إلى النشر داخل الولايات المتحدة نفسها فى الوقت الذى تنشر فيه على العالم كله.

4- المواطن الأمريكى يصدق تماماً كل ما يقوله الإعلام الموجه إليه من قبل الحكومة الأمريكية ، ولا يستمع إلى أى إذاعات أجنبية حتى وإن كانت هيئة الإذاعة البريطانية . B.B.C . وتستغل النخبة الحاكمة ذلك فى توجيه الإعلام نحو الأهداف التى تريدها، حيث تركز القنوات التليفزيونية على الأخبار المحلية ، مثل فضائح النجوم وعروض الأزياء والبرامج الحوارية المليئة بالنكات الجنسية وشبه الجنسية . بينما تتناول وسائل الإعلام الأحداث العالمية بخفة وسطحية على اعتبار أنها مجرد قصص مسلية، وقد لو حظ أن نشرة قناة C.N.N التى تبث للعالم الخارجى مختلفة تماماً عن النشرة التى يشاهدها المواطن الأمريكى . إن الأحداث المشتعلة فى العراق وأفغانستان وفلسطين والتى تقدمها C.N.N للعالم الخارجى لا يشاهدها المواطن الأمريكى على الإطلاق ، وإن ذكرت فإنها تذكر بشكل عابر وكأنها حادثه مسلية . وقد وصف أحد علماء الاجتماع الظاهرة الإعلامية هذه بمصطلح infirtainment وهو مشتق من كلمتي: الإعلام information والتسلية entertainment . ويتضح مدى انغلاق المواطن الأمريكى إذا علمنا أن 20٪ فقط من المواطنين الأمريكين يحملون جوازات سفر ، وأن معظم هؤلاء استخرجوا الجوازات للسفر إلى المكسيك أو كندا للسياحة أو لشراء الدواء الرخيص .

إن نظرة فاحصة على الصحف والمجلات الأمريكية ، نجد أنها مقسمة إلى صحف ومجلات للنخبة مثل : النيويورك تايمز ، والواشنطن بوست ، والنيويورك بليك ، وهى صحف ومجلات تغطى كل القضايا الأساسية فى العالم ولا تكتفى بمجرد نشر الأخبار بل تعطى تحليلات متعمقة فى كثير من الأحيان ، ولا يقرأ هذه الصحف والمجلات سوى أعضاء النخبة السياسية والثقافية ، لذا فإن توزيعها محدود. أما صحف مثل U.S. today فهى تركز على الشأن الداخلى فقط ، أما ما يتعلق بالعالم الخارجى فإنها تتبنى نفس وجهة نظر المحافظين الجدد بلا تحفظ.

أما غيرها من الصحف والمجلات والإذاعات والقنوات التليفزيونية المحلية ، فإنها تركز على الأخبار المتعلقة بكل ولاية أو مدينة فقط، مع الاهتمام البالغ بالأخبار التى تؤجج نزعات الفرد الاستهلاكية والجسدية، وحصره فى عالم الحواس والسلع المادية . كما أن عدداً من محطات الإذاعة والتليفزيون الإنجيلية تبشر بنوع من المسيحية المتجردة تماماً من القيم الإنسانية والأخلاقية.

بالإضافة إلى صحف الفضائح والإثارة Tab laid وهى المتخصصة فى نشر قصص وفضائح النجوم وأبطال الرياضة فلا تذكر شيئاً عن الأخبار المحلية أو الدولية . وهكذا فإن الإعلام الأمريكى يفرغ الإنسان من أى اهتمامات خارج نطاق مصالحه الشخصية المادية الضيقة فيضيق أفقه ولا يهتم بشئ آخر.

ومن أهم القضايا التى تواجهها الديمقراطية فى التطبيق مشكله المرجعية النهائية ، أى مجموع القيم التى تحكم الإجراءات الديمقراطية ذاتها . إن 51٪ من الناخبين فقط يستطيع أن يقرر القانون والحقيقة والقيمة ، أى؛ أن عدد الأصابع المرفوعة هو المرجعية النهائية، فهى ديمقراطية بلا مرجعية فلسفية أو أخلاقية أو معرفية؛ ومن ثم يمكن تسميتها: الديمقراطية المنفصلة عن القيم الأخلاقية.

وتعد تجربه النازية نموذجاً لتلك الديمقراطية التى لا مرجعية لها ، والتى تعتمد على عد الأصابع المرفوعة . فقد وصل هتلر إلى الحكم من خلال القنوات الشرعية الديمقراطية، وحاز رضا وإعجاب الشعب الألمانى، وعندما بدأ الحكم النازى فى إبادة الأقليات العرقية والدينية غير المرغوب فيها، مثل الغجر والمعوقين واليهود، باعتبارهم

عناصر بشرية تستهلك ولا تنتج ، وافق أغلبية الشعب الألماني على عمليات التطهير العرقي .

كما وافقت الشعوب الغربية عن طريق ديمقراطية عدّ الأصابع على إرسال الجيوش لاستعمار دول آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية فأبادت ما أبادت من بشر ، وسخرت ما سخرت من شعوب، ونهبت ما نهبت من أراض ، ووافقت هذه الشعوب الغربية على ذلك بشكل بالغ الديمقراطية تماماً كما توافق الأغلبية الساحقة من أعضاء الكنيسة الإسرائيلي على عمليات البطش والذبح والحصار التي تمارسها القوات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني . فالديمقراطية الإسرائيلية هي ديمقراطية بلا مرجعية أخلاقية مثلها كمثل عصابات المافيا تماماً، تلك التي تعطي لنفسها الحق في سلب وقتل الآخرين والاستمتاع بما تحصل عليه منهم . فالصهاينة لا يختلفون في هذا عن عصابات المافيا الذين يطبقون الإجراءات الديمقراطية بكل صرامة في توزيع الغنائم وتحديد مناطق النفوذ ومن يخرق هذه الإجراءات يعاقب بالقتل .

وترجع الوحشية التي تمارسها الديمقراطية الغربية في حق الشعوب الأخرى إلى ارتباطها الوثيق بالنظام الاقتصادي الرأسمالي الذي جعل "الربح" هو الهدف الأسمى والوحيد من العملية الإنتاجية ، وإهمال باقي الجوانب الأخرى سواء كانت اقتصادية، أو اجتماعية، أو إنسانية . فالرأسمالي فردا كان أم شركة يسعى لتحقيق أقصى ربح ممكن بأقل تكلفة ممكنة، وهذا هو الهدف الأسمى له .

